محاضرة الأستاذ الدكتور/ رفعت العوضي

بعنوان

الثقافة البيئية في الإسلام

الثلاثاء الموافق ١٦ / ١٢/ ٢٠٠٣م

تقديم فضيلة الشيخ جمال قطب

تقديم فضيلة الشيخ جمال قطب/

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. في اللقاء الثاني لموسم محاضرات مركز الدراسات المعرفية، أشرف أن أكون معكم بين يدي الأستاذ الدكتور رفعت العوضي. لقاؤنا اليوم حول أمر أتصوره كواعظ بالأزهر من الفرائض العامة التي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قال فقهانا عنها أنها "فرائض كفاية"، هذا المصطلح سريعًا كلنا يحفظه إذا قام به أحد سقط عن الباقي، هو هكذا لكن لابد أن يقوم ويتأكد كل أحد أن هناك من قام به حتى يرتاح هو، أما أن يتصور كل إنسان أن الأمر متروك لغيره هكذا تدنت ثقافتنا البيئية، وتأخرت مجتمعاتنا، وتردت ثقافتنا، كما سأل أبو الحسن الندوي رحمة الله عليه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"، بيئة إسلامية متخلفة، وبيئة غير إسلامية متردية الأخلاق تعتدي وتناوش وتبدأ غيرها بالشر. عن الثقافة البيئية من منظور إسلامي نتشرف بالاستماع إلى الأستاذ الدكتور رفعت العوضي أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر فليتفضل.

* * *

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

البعد الديني والأخلاقي لحماية البيئة

أ.د. رفعت السيد العوضي

رئيس قسم الاقتصاد

كلية التجارة - جامعة الأزهر

تمهيد

أولاً: موضوع البحث وفرضيته

١- موضوع هذا البحث هو البعد الديني والأخلاقي لحماية البيئة. والفرضية التي وضعت لهذا البحث ويعمل على إثباتها هي أن الإسلام له منظومته المتكاملة لحماية البيئة.

٢- الموضوعات التي يناقشها هذا البحث بهدف إثبات الفرضية التي وضعت له هي الموضوعات التالية:
- التوازن الكوني في القرآن الكريم.
- تسخير ما في الكون للإنسان.
- السنن الإلهية لحماية البيئة وفسادها.
- تلوث البيئة من صور الفساد المنهي عنه.
- فقه حماية البيئة.

لا نزعم أن هذه الموضوعات هي اكتشاف لهذا البحث وإنما الذي نزعمه هو أن البحث عمل على توظيف هذه الموضوعات في موضوعه وهو البعد الديني والأخلاقي لحماية البيئة.

ثانياً: منهج البحث

مناهج البحث معروفة، ولها أهميتها في البحث العلمي. إنها ضابط متفق عليه يؤطر العمل العلمي. هذه إيجابية لهذه المناهج.

مناهج البحث خبرة مكتسبة من أعمال العلماء السابقين، وقبل أن نقر ما قالوه فإنه خضع لحوارات عميقة. وهذه أيضاً إيجابية لهذه المناهج.

في بحثنا لن نجرى مصادرة على مناهج البحث وإنما لبحثنا خصوصيته. بحثنا يتكون من خمس فقرات، أربع منها تتأسس على ما جاء في القرآن الكريم. في هذه الفقرات الأربع نتجه إلى إعمال العقل في الآيات التي نعايشها لاستخلاص (فكر) يتعلق بالموضوع الذي ندرسه. بعبارة أخرى لا نعمل على استنباط حكم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شرعي لأن هذا اجتهاد فقهي، ولم نعقد بحثنا لذلك، وإنما عقدناه لاستخلاص فكر يؤطر لموضوع حماية البيئة تأطيرًا قيميًا وتأطيرًا يسع اقتراح سياسات بحثية.

موضوع الفقرة الخامسة في بحثنا: في فقه حماية البيئة. لم نستهدف عمل استقراء للأحكام الفقهية، وكذلك لم نستهدف استنباط حكمٍ فقهي، وإنما نستهدف تقديم تعريف بعناصر في فقه الموضوع التي تمثل تطبيقاً لفقهه، أو تمثل إطاراً لأحكام فيه.

بناء على ذلك فليس هناك منهج يسع هذا الأمر بتفريعاته. لا يعني ذلك تبريراً للخروج على المنهجية وإنما يعنى أننا سنكون منهجيين بما يتلاءم مع الموقف الذي نواجهه.

ثالثاً: مصطلحات داخلة في الدراسة

١- التوازن الكوني: النظام الذي خلق الله سبحانه عليه الكون وترتبط كل مكوناته بعلاقة عضوية ووظيفية ليكون صالحاً لأداء وظيفته التي أرادها الله عز وجل.

٢- التسخير: تذليل ما في الكون لمنافع خلقه ومصالح عباده بحيث ينتفع بها على شتى الوجوه وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها والذي تسير وفقه.

٣- فقه البيئة: الأحكام الفقهية المتعلقة بالبيئة أو تعمل عليها.

٤- البيئة: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان فيتأثر به ويؤثر فيه.

٥- البيئة البشرية (البيئة الحضارية): إنجازات الإنسان الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي أوجدها داخل البيئة الطبيعية.

٦- البيئة الطبيعية: كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر وأشياء حية وغير حية ولا يكون له دخل في وجودها.

٧- التوازن البيئي: النظام الذي عليه الأرض بحيث يكفل وجود الحياة واستمرارها.

٨- تلوث البيئة: كل تغيير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية، ولا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون أن يختل توازنها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الأول
التوازن الكوني في القرآن الكريم

تمهيد

نعقد هذا المبحث للتعرف على التوازن الكوني في القرآن الكريم. نمهد لهذا المبحث بالمقدمات التالية:

عنوان هذا المبحث وهو التوازن الكوني في القرآن الكريم له دلالتان. دلالة قريبة هي أن هذا المبحث يستهدف الكشف عن التوازن الكوني كما صاغته بعض آيات القرآن الكريم. هذه الدلالة مقصودة ونقول عنها إنها فرضية يعمل البحث على إثباتها. الدلالة الثانية هي أن التوازن الكوني لا يتحقق إلا بالقرآن الكريم، أو أن القرآن الكريم فيه التوازن الكوني. هذه الدلالة نرتبط بها ارتباطاً كلياً.

هذه الدلالة الثانية يمكن توظيفها أو مدها إلى التوازن الكوني في الإسلام، ونعنى أن التوازن الكوني لا يتحقق إلا بالإسلام. كما يمكن توظيفها إلى التوازن الكوني في المنهج الإلهي وتعنى أن التوازن الكوني لا يتحقق إلا بالمنهج الإلهي. مرة ثانية نعلن أننا نرتبط وجدانياً وعقلياً بهذه الدلالة الثانية [1].

هذا العنوان التوازن الكلى يعمل فوق عنوان معروف في الدراسات البيئية وهو التوازن البيئي لأسباب منها:

(١) التوازن الكوني أعم وأشمل من التوازن البيئي. بعبارة أخرى إنه يشمل التوازن البيئي وتوازنات أخرى. إنه يشمل الكون الفسيح الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ما نراه ومالا نراه، ما يمكن أن نراه وما لم يمكن أن نراه. إنه يشمل ما نعرفه وما لا نعرفه، وما يمكن أن نعرفه وما لا يمكن أن نعرفه.

(٢) عنوان التوازن الكوني يفضل عنوان التوازن البيئي. الارتباط الذي يعبر عنه التوازن الكوني أرقى من الارتباط الذي يتضمنه التوازن البيئي. نحن هنا نتحدث عن التفاضل الكيفي.

(٣) عنوان التوازن الكوني له دلالة إيمانية.

معايشتنا للقرآن الكريم جعلتنا نختار ثلاث مجموعات من الآيات كل منها يمثل بعدا من أبعاد التوازن الكوني في القرآن الكريم.

أولا: التوازن الكوني العام

بعض الآيات الدالة على التوازن الكوني العام:

يقول الله عز وجل:

---

(١) ترتبط هاتان الدلالتان بعناوين نفضلها في الاقتصاد الإسلامي مثل العمران في الإسلام والأمن في الإسلام والعدالة في الإسلام .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) (الحجر: ١٩- ٢١)

في تفسير الآيات:

موزون: وزن بميزان الحكمة وقدر بما تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقص(٢).

موزون: مستعار للمقدر المضبوط(٣).

موزون: كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقه وإحكام وتقدير(٤).

يقول الله عز وجل:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن: ١-١٣)

في تفسير الآيات:

- بحسبان: بحساب معلوم وتقدير سوى(٥).

يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها، بحسبان: بقدر، بحسبان كحسبان الرحى: يعنى قطبهما الذي يدوران عليه(٦).

مقدر في بروجها ومنازلها بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية(٧).

- ووضع الميزان: أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، وفي كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام بالعدل قامت السماوات والأرض أي بقيتا على أبلغ نظام وأتقن إحكام(٨).

---

(٢) الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل ، جـ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٣١٢.
(٣) ابن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية، ١٩٨٤م ، ص ٣٥ .
(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن الكريم ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٣٤ .
(٥) الزمخشري ، الكشاف ، جـ ٤، مرجع سابق ، ص ٥ .
(٦) الشوكاني ، فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية من علم التفسير ، جـ٥ ، دار الفكر ، ص ١٣١ .
(٧) الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥م ، ص ٩٩ .
(٨) المرجع السابق ، جـ ٢٧ ، ص ١٠١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الوزن حقيقته تعادل الأجسام في الثقل[٩].
- والأرض وضعها للأنام: محمول على الانتفاع التام[١٠].
- تمكنهم من الانتفاع بها بجميع مالهم فيها من منافع ومعالجات[١١].

المعنى العام للآيات:

هذه السورة إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة في جميل صنعه وإبداع خلقه وفي فيض نعمائه وفي تدبيره للوجود وما فيه.. الشمس والقمر بحسبان: حيث تتجلى دقة التقدير في تنسيق التكوين والحركة.. وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في توازن وضعهما وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب.. والسماء رفعها ووضع الميزان: ميزان الحق، وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً، وضعه لتقدير القيم، قيم الأشخاص والأحداث والأشياء كي لا يختل تقويمها ولا يضطرب وزنها.. ألا تطغوا في الميزان: يرتبط الحق في الأرض وفي حياة البشر بالكون ونظامه. والأرض وضعها للآنام: تذكرنا بالاستقرار الذي نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله [١٢].

يقول الله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ **)** (الملك: ١-٥).

هذه خمس آيات من سورة الملك، نعايشها بهدف اكتشاف القيم الكبرى التي تحملها والتي تعمل إيجابيا على توازن الكون الذي يعيش فيه الإنسان.

في تفسير الآيات:

- طباقاً: أي مناسبة بعضها لبعض في النظام.. وأن حركتها منتظمة بحيث لا ترتطم ولا يتداخل سيرها[١٣].
- تفاوت: من معانيه أنه لا يحصل فيه عيب، ومن معانيه عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه[١٤].

---

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٤١ .
(١٠) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
(١١) ابن عاشور ، جـ ٢٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .
(١٢) سيد قطب ، جـ ٦ ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤٥ - ٣٤٥٠ .
(١٣) ابن عاشور ، في تفسير التحرير والتنوير ، جـ ٢٩ ، مرجع سابق، ص ١٦-١٧ .
(١٤) الرازي ، تفسير الفخر الرازي ، جـ ٣٠ ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٥٦ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه الآيات تبعث حركة التأمل والاستغراق في هذا المجال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف(١٥).

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت: التفاوت تجاوز الشيء والحد الذي يجب له زيادة أو نقصاً.. وقيل عدم استواء.. وقيل اضطراب أي اعوجاج.. وقيل تناقض(١٦).

ثانياً: تحليل

١: بين يدي الآيات:

تعرفنا على شيء يتعلق بالتوازن الكوني العام في ثلاث مجموعات من الآيات هي آيات في سورة الحجر وآيات في سورة الرحمن وآيات في سورة الملك. قبل أن نبدأ في تحليل التوازن الكوني تأسيساً على ما جاء في هذه الآيات بمجموعاتها الثلاث نقدم تمهيداً يحمل الأفكار التالية:

أ- التوازن الكوني العام في القرآن الكريم لا يقتصر على الآيات التي عرضناها وإنما في القرآن الكريم آيات أخرى كثيرة تؤصل لهذا التوازن. يعني هذا أن الآيات التي عرضناها هي مجرد أمثلة ولها نظائر كثيرة في القرآن الكريم.

ب- ما قدمناه عن التوازن الكوني العام تأسيساً على آراء المفسرين الذين رجعنا إلى تفسيرهم يفهم بالإحالة إلى الوعاء العلمي في عصرهم. يترتب على ذلك أن الوعاء العلمي في عصرنا والذي هيأ لنا أن نفهم الكون على نحو أوسع -هذا الوعاء يتيح لنا أن نضيف جديداً في التوازن الكوني العام.

جـ- التحليل الذي نقدمه في هذه الفقرة لا يقف عند حد التعامل مع المفردة وحدها وإنما يأخذ أيضاً السياق الذي جاءت فيه هذه المفردة. لأجل أن توضح هذه الفكرة نعطي المثال التالي:

في سورة الحجر جاءت مفردة موزون (من كل شيء موزون). التحليل الذي نقدمه يأخذ هذه المفردة في سياق الآيات التي جاءت فيه. هذا المنهج هو إعمال لأحد فروع الدراسات القرآنية وهو علم السياق. هذا العلم يدرس الآية في القرآن الكريم مربوطة إلى ما قبلها وما بعدها بحيث يتم فهم السورة على أنها وحدة واحدة، بل يفهم القرآن الكريم كله على أنه وحدة واحدة.

هذا هو المنهج الصحيح الذي يجب أن نتعامل به مع القرآن الكريم وإن كنا نشير إلى أن مقتضى الحال يستلزم أن نأخذ الآيات التي ذكرناها على أنها وحدة. إن اقتصارنا على هذه الآيات سببه أننا نجري بحثاً محدوداً مساحة وكذا زماناً.

---

(١٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جـ ٦ ، مرجع سابق ، ص ٣٦٢٩ .
(١٦) الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، جـ ٢٩ ، مرجع سابق ، ص ٦-٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

د- يمكن دراسة التوازن الكوني في إطار تخصصات علمية متنوعة مثل علم الفلك وعلم الأحياء وعلم الطبيعة (الفيزياء) والعلوم الاجتماعية. كل واحد من المشتغلين بهذه العلوم يستطيع التعامل مع التوازن الكوني كما جاء في القرآن الكريم بالمعارف التي تخصص فيها. متخصص في العلوم الاجتماعية - هذا تخصصي - لا يتعامل مع التوازن الكوني من منطلق قوى الجاذبية والقياسات لمكونات هذا الكون ومادته وغير ذلك من موضوعات مناظرة، وإنما المتخصص في العلوم الاجتماعية له مجاله الذي يفهم به ويناقش فيه التوازن الكوني كما جاء في القرآن الكريم. بعبارة أخرى إن المتخصص في العلوم الاجتماعية لا يبعد عن هذا المجال وإنما عليه أن يختار المجال الذي يتلاءم مع معارفه. التحليل الذي نقدمه في هذه الفقرة سوف يحاول أن يلتزم بهذه الرؤية القائمة على التخصص العلمي.

٢: دلالات التوازن الكوني العام

تعطى الآيات التي تعرفنا عليها دلالات في التوازن الكوني العام. بعض هذه الدلالات قال به المفسرون الذين اشتغلوا بتفسير القرآن الكريم، وبعضها تعرفنا عليه من خلال الإطار العلمي لعصرنا. من الدلالات التي حملتها الآيات الدلالات التالية:

أ- كل شيء في الكون في موضعه في دقة وإحكام. ينطبق هذا الأمر على أكبر ما في الكون وعلى أصغر ما فيه. هذه الدلالة لا تصادر أن يعرف الإنسان وأن يوظف ما يعلمه في الاستفادة من كل ما في الكون. القرآن الكريم في آيات المجموعات الثلاث التي عشنا معها وفي آيات أخرى كثيرة يدعو إلى التفكير والتعقل والتدبر. أن يعلم الإنسان علماً وأن يوظف هذا العلم في تسخير الكون هذا غير ممنوع. الممنوع هو إفساد ما في الكون أو توظيفه توظيفاً غير صحيح.

الدعوة لأن يعرف الإنسان وأن يوظف ما يعرف تصاحب كل ما نقدمه في هذا البحث عن التوازن الكوني وعن غيره. إن وجود نظام لا يعني أنه ليس للإنسان حركة يجريها. وجود نظام لا يعنى تعطيل تطور العلوم، وجود نظام لا يعنى مصادرة حق الإنسان في أن يبدع وأن يطور.

ب- أخبر القرآن الكريم بالتوازن الذي خلق الله عز وجل الكون عليه في سياق يحمل عناصر للإيمان بهذا التوازن والاقتناع به. وكذا الانتفاع به من هذه العناصر:

- التوازن الكوني مربوط إلى أن الأرض التي يعيش عليها الإنسان تؤمن له معايشه **(**جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**)** (الأعراف: ١١).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- التوازن الكوني مربوط إلى أن تطور حاجات الإنسان سوف يقابلها ازدياد الموارد التي يمكنه الله منها بالقدر الذي يفي بهذه الحاجات المتزايدة **(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)** (الحجر: ٢١).

- توازن الحياة على الأرض باعتباره أحد عناصر النظام الكوني مربوط إلى رواسي أوضعها الله في الأرض **(وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)** (ق: ٧) وقد جاء القرآن الكريم بكلمة (رَوَاسِيَ) نكرة لتشملَ كل ما يدخل في توازن الأرض وتوازن الحياة عليها. وإذا كان القدماء قد فهموا الرواسي على أنها الجبال فإن التطور العلمي والتقدم المعرفي يجعلنا ندخل في الرواسي عناصر جديدة، منها المحافظة على التوازن البيئي.. وهكذا.

- التوازن الكوني مربوط إلى جمال الكون **(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)** (الملك: ٥) وهذا يشمل عنصر تحفيز للإنسان ليحافظ على هذا التوازن ويحرسه لأنه يصنع جمال الكون.

- التوازن الكوني مربوط إلى أن الله هو المالك لكل هذا الكون **[بِيَدِه الْمُلْكُ]** إرجاع الملكية لله عز وجل والإيمان بها يجعل الإنسان منقادا إلى الالتزام بما يأمر به الله عز وجل لأنه المالك الأصلي.

- التوازن الكوني مربوط إلى خلق الإنسان **(خَلَقَ الْإِنسَانَ)** ولذلك يكون الإخلال بالتوازن الكوني يعتبر إخلالا بتوفير الحياة للإنسان.

- التوازن الكوني مربوط إلى العلم الذي يعلمه الله للإنسان **(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**، وهذا يضع قيدا على الإنسان بحيث يجعل العلم الذي يتعلمه متوافقا مع الحفاظ على التوازن الكوني.

- التوازن الكوني مربوط إلى أن الله عز وجل جعل الأرض مهيأة لانتفاع الإنسان بها **(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)**. وبهذا يكون الإخلال بالتوازن الكوني يعتبر إخلالا بالحالة التي عليها الأرض فلا تصبح مهيأة لانتفاع الإنسان بها.

- التوازن الكوني مربوط إلى الإيمان بالله عز وجل وتصديقه **(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)**.

جـ- الآيات التي عشنا معها وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم تدل على أن التوازن الكوني أجراه الله على نحو يجعل كل ما في الكون يؤدى وظائفه التي خلقه الله سبحانه من أجلها. هذه الوظائف هي لنفع الإنسان. المفسرون الذين فسروا آيات التوازن الكوني كان هذا البعد واضحا أمامهم، بل إنهم ركزوا الحديث عليه.. نذكر بشيء مما قالوه ونقلناه عنهم:

<u>وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ</u>: - محمول على الانتفاع التام.

- تمكين الناس من الانتفاع بها بجميع ما لهم فيها من منافع ومعالجات.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الكون على ما هو عليه الآن متلائم مع وظائفه التي هيأه الله سبحانه لها، وهذه الوظائف لنفع الإنسان. التوازن الكوني على النحو الذي خلقه الله عز وجل هو لنفع الإنسان والإخلال بالتوازن الكوني في الأرض أو في أي مجال من المجالات سوف يعود بالضرر على الإنسان.

نحاول أن نعطى إشارات موجزة عن هذه الفكرة استناداً إلى الآيات التي عشنا معها بآراء المفسرين عنها:

- كل شيء في الكون في علاقته بالأشياء الأخرى مضبوط بإحكام.
- كل شيء في الكون منتظم في حركته وفي سيره بحيث لا يتداخل مع شيء أخر.
- كل الأشياء متلائمة وبينها تناسب.
- كل الأشياء في الكون معده لوظائفها ومتلائمة مع هذه الوظائف.
- التوازن الكوني مؤسس على التمكين التام للإنسان بحيث يتحقق الانتفاع التام له مما خلقه الله عز وجل.
- التوازن الكوني مؤسس على تمكين الإنسان في الكون واستقراره عليه.
- التوازن الكوني مؤسس على إتاحة التمكين للإنسان وانتفاعه بما خلق الله في هذا الكون.

هذه أفكار لها ارتباطها بالتوازن الكوني، والتي لها تفاعلاتها مع وظيفة تسخير هذا الكون للإنسان لينتفع به. القضية الكبرى التي تقع على عاتق الإنسان وعليه أن يتعامل معها تتمثل في الآتي: كيف يحافظ الإنسان على هذا التوازن الكوني بحيث يظل قادراً على الانتفاع به. بعبارة أخرى: كيف لا يدمر الإنسان هذا التوازن الكوني وبالتالي يدمر صلاحيته للانتفاع به.

في ختام الحديث عن التوازن الكوني نرى ضرورة الإشارة إلى أن التوازن الكوني العام يندرج تحته توازنات كونية جزئية. على سبيل المثال: الأرض بما في باطنها وما فوقها تندرج في التوازن الكوني العام ولها توازنها الكوني الجزئي. وكل ما قلناه عن عناصر ارتباطيه بالتوازن الكوني العام ينسحب على الأرض بتوازنها الكوني الجزئي. يعنى ذلك أن الأرض بتوازنها الكوني الجزئي الذي خلقها الله عليه معدة ومهيأة لانتفاع الإنسان وإخلال الإنسان بهذا التوازن الكوني الجزئي يخرج الأرض عن وظيفتها التي هيأها الله عليها، وبالتالي يتعطل انتفاع الإنسان بها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني
تسخير ما في الكون للإنسان

تعرفنا في الفقرة السابقة على شيء عن التوازن الكوني العام كما جاء في القرآن الكريم. في الفقرة الحالية نتعرف على فكرة جديدة هي تسخير ما في الكون للإنسان. وجود نظام كوني لا يعنى تعطيل قوى الإنسان أن توظف كل ما في الكون توظيفا إيجابيا نافعا. القرآن الكريم يعبر عن هذا التوظيف بالتسخير.

نذكر بالآيات التي جاءت في القرآن الكريم والتي أفادت بأن الله عز وجل سخر للإنسان ما في الكون، وهذا الكون يعمل بآلية توازن عام.

يقول الله عز وجل:

ـ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ـ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الرعد: ٢).

ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٣).

ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢).

ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥).

ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١).

ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠).

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٩).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) (فاطر: ١٣).

ـ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) (الزمر: ٥).

ـ (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) (الزخرف: ٩-١٤).

ـ (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية: ١٢- ١٣).

أولا: في معنى التسخير:

سخر الشمس والقمر: ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده[١٧].

التسخير حقيقة تذليل أي عمل شاق أو شاغل بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير البقر للحلب.. ويستعمل مجازا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه بحيلة أو إلهام تصريفا يصيره من خصائصه وشئونه.. أطلق التسخير فيه مجازا على جعلها خاضعة للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير، مع أن شأن عظمها ألا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط[١٨].

وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه: هذا المخلوق الصغير.. الإنسان يحظى من رعاية الله سبحانه.. بالقسط الوافر الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها والذي تسير وفقه ولا تعصاه، ولولا الاهتداء

(١٧) الطبرسي، جمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م، ص ٤٢١.
(١٨) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٨، مرجع سابق، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى طرف هذا السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة[١٩].

ثانيا: تحليل واستنتاج:

تعرفنا على بعض آيات القرآن الكريم التي تعلم الإنسان أن ما في السموات والأرض جميعا مسخر للإنسان. نحاول أن نعايش هذه الآيات محللين لها ومستخلصين بعض النتائج.

١ ــ تبين الآيات التي تعرفنا عليها أن القرآن الكريم يربط بين التوازن الكوني العام وتسخير ما في هذا الكون للإنسان. هذا الربط هو الذي جعلنا ندرسهما متتابعين القرآن الكريم يقيم بينهما رابطة وذلك ليعلم الإنسان شيئا جوهريا للحياة.

يعنى التوازن الكوني العام أنه توجد آلية إلهية يعمل بها هذا الكون. يعطى القرآن الكريم للإنسان من خلال الربط بين التوازن الكوني وتسخير ما في هذا الكون للإنسان ــ يعطيه توجيها بأنه مع وجود توازن كوني عام يربط كل عناصر الكون في عملها وفي حركتها إلا أن كل ما في الكون مسخر للإنسان. هذا التسخير يلزم الإنسان أن يسعى وأن يعمل. القرآن الكريم يعلم الإنسان أن التوازن ليس قوة معطلة وإنما قوة دافعة للحركة، دافعة للعمل، دافعة للتعلم واكتساب معارف ومهارات للتعامل مع الكون. يعلمنا القرآن الكريم أن وجود نظام توازن كوني عام لا يعنى تعطيل قوى الإنسان من أن توظف كل ما في الكون توظيفا إيجابيا نافعا.

٢ ــ الآيات التي ربطت التوازن الكوني العام بتسخير ما في هذا الكون للإنسان حملت بعدا إيمانيا. المفسرون الذين عرضنا آراءهم أشاروا إلى هذا البعد الإيماني. مما نقلناه عن المفسرين: التسخير تذليل عمل شاق.. أطلق التسخير على جعل ما في هذا الكون خاضعا للنظام الذي خلقه الله عليه مع أن شأن عظمهما ألا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط.

البعد الإيماني واضح في الربط بين التوازن الكوني وتسخير ما في هذا الكون للإنسان. إن الله عز وجل جعل تسخير ما في هذا الكون للإنسان عنصرا من عناصر توازن هذا الكون. إن ما في الكون قوى هائلة لا يستطيع الإنسان أن يخضعها.. الله سبحانه جعلها مسخرة للإنسان وفق قانونه العام في توازن الكون أو في إطار هذا القانون العام. توازن الكون بأجرامه الهائلة وتسخيره للإنسان ذي القوة المتناهية في الصغر آيتان ناطقتان بقدرة الله.

٣ ــ من العناصر الواضحة عند المفسرين وهم يبينون معنى التسخير أن الله سبحانه جعل هذا التسخير لتحقيق منفعة الإنسان. عندما نتعرف على هذا العنصر

(١٩) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، مرجع سابق، ص ٣٢٢٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإنه تبرز أمامنا ثلاثة أمور كبرى مترابطة: التوازن الكوني العام وتسخير ما في هذا الكون للإنسان وأن هذا التسخير لتحقيق منفعة الإنسان. هذا الربط يضع على الإنسان أمانة إيمانية. إن الله سبحانه خلق الكون لتحقيق منفعة الإنسان. الأمانة الإيمانية هي أن يحافظ هذا الإنسان على هذا الكون على النحو الذي أبدعه الله سبحانه. إن الإنسان الذي يعيث فسادا في الأرض تدميرا وتلويثا مخالف للقانون الإلهي العام ومعارض لمصلحته الشخصية وضار بمنفعته الخاصة. وما ينطبق على الأرض ينطبق بدوره على الكون على وجه العموم.

٤ ــ واضح من آراء المفسرين أن التسخير دافع للإنسان أن يعرف وأن يتعلم. دافع للإنسان أن يبدع في العلوم التي تمكنه من تسخير ما في هذا الكون. نحن هنا أمام قضية كبرى، التسخير سنة من سنن الله في الكون ولكن لا يتحقق هذا التسخير إلا إذا علم الإنسان علما. التسخير سنة من سنن الله ــ قانون إلهي ــ لكن الله لا يجريه إلا على يد من عرف. العلم هو مفتاح هذا القانون الإلهي. العلم المؤهل لأن يكون مفتاح هذا القانون الإلهي يجب أن يكون علما نافعا في ذاته وفي نتائجه. أما العلم الخبيث فإنه لا يسخر ما خلقه الله للإنسان في الكون وإنما يدمره.

آية سورة النحل التي علمت الإنسان أن ما في الكون مسخر له جاء ختامها: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** (الرعد: ٤). هذا الختام يضع على الإنسان مسئولية جسيمة، إن عليه أن يعقل حكمة التسخير وعليه أن يعقل ألا يفسد الكون الذي سخر له.

آية سورة لقمان قاطعة في الربط بين التسخير وبين سلوك الإنسان بعلمه وعمله: **(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)** (لقمان: ٢٩).

آية سورة الجاثية قاطعة في الربط بين التسخير والعلم الطيب النافع: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** (الزمر: ٤٢).

٥ ــ آيات التسخير أرشدت الإنسان إلى قيم سلوكية مطلوب الالتزام بها لتتحقق الاستفادة من التسخير: هذا القيم هي:

ــ الشكر: **(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** .

ــ الرأفة والرحمة: **(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)** .

ــ الهداية: **(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثالث
السنن الإلهية لعمران البيئة أو فسادها

تمهيد

هذا هو المبحث الثاني في دراستنا عن البعد الديني والأخلاقي لحماية البيئة. موضوع هذا المبحث هو السنن الإلهية في العمران والهلاك. نقدم بعض الأفكار التي تمهد لبحث هذا الموضوع.

١ ــ المفردات الثلاث في العنوان مفردات قرآنية.

ــ **(**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**)** (الأحزاب: ١٢).

ــ **(**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**)** (هود:٦١).

ــ **(**فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**)** (الأنعام ٦).

٢ــ المعنى الذي نقصده بعنوان هذا المبحث هو أن الأرض يعتورها العمران والهلاك، وأن هذا الأمر محكوم بسنن إلهية. نحاول أن نستخدم مفردات من ثقافتنا المعاصرة بحيث تعبر عن المعنى السابق بعنصريه العمران والهلاك. مألوف أن نقول: تقدم وتخلف، وبمصطلحات تتلاءم مع هذا البحث الذي نقدمه عن البيئة مألوف أن نقول حماية البيئة وإفساد البيئة، أو نقول بيئة صالحة وبيئة ملوثة، أو نقول بيئة تم الحفاظ على توازنها وبيئة اختل توازنها.

٣ ــ ما سبق يمهد أن نقدم مصطلحا جديدا هو: السنن الإلهية لحماية البيئة أو فسادها. المعنى الذي نقصده بذلك هو أن الله سبحانه وضع سننا إذا التزم الإنسان بها حافظ على صلاح البيئة فإذا خرج الإنسان على هذه السنن ولم يلتزم بها بل عمل بنقيضها فإنه يفسد البيئة التي خلقها الله صالحة، إنه يخل بتوازن البيئة التي خلقها الله له متوازنة.

أولا: التعريف بالسنن الإلهية وأنواعها

١ - معنى سنة إلهية

إذا كان العلماء يتكلمون عن القانون العلمي بخصائصه المعروفة فإننا نقترح أن يكون حديثنا المرتبط بالقرآن الكريم عن البيئة تحت عنوان: السنن الإلهية.

مصطلح السنة له استخدامات لغوية كثيرة. نقتصر على عرض بعض هذه المعاني اللغوية: السنة: الطريقة، يدل على هذا المعنى قوله تعالى: **(**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ**)** (الأحزاب: ٦٢).

سنة الرسول: الطريقة التي كان يتحراها. كما تطلق السنة على ما يؤتم به[٢٠].

(٢٠) ابن منظور، لسان العرب، ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من المعروف أن المعنى الاصطلاحي يدور في الإطار العام الذي رسمه الاستخدام اللغوي للكلمة. نختار تعريفين مما قيلا عن السنن في الاصطلاح.

التعريف الأول: سنن الله: طريقته وما جرى من نظامه في خلقه(٢١).

التعريف الثاني: السنن الإلهية: منهج الله في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سر الحياة الإنسانية وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله(٢٢).

٢ ــ أنواع السنن الإلهية:

تقسم السنن الإلهية إلى قسمين رئيسيين.

القسم الأول السنن الكونية: يقصد بها النظم التي تسير وفقها الماديات كالكواكب والنجوم وكل عنصر مادي في الكون.

القسم الثاني السنن الإنسانية أو سنن الاجتماع: هي النظم المتعلقة بتغيير أحوال الأمم وتبدلها تعلقا بما تفعله هذه الأمم من خير أو شر، وأن هذه التبدلات مبنية على مقدار صلاح الأمة وفسادها(٢٣).

القسم الثاني من السنن هي السنن الإنسانية أو سنن الاجتماع و تقسم بدورها إلى قسمين(٢٤). القسم الأول يسمى السنن العامة وتقع على البشر كافة. مما ينبغي معرفته عن هذا النوع من السنن أنه يقع على المؤمن وعلى غير المؤمن. ومن الأمثلة التي أعطيت على ذلك ما جاء في قوله تعالى: **(**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا**)** (الإسراء: ٢٠). المفسرون على أن هؤلاء وهؤلاء: المؤمنون والكافرون.

القسم الثاني: من أقسام السنن الإنسانية يسمى السنن الخاصة وهي التي تكون خاصة بطائفة أو بقوم وحدهم.

الدراسات التي كان موضوعها السنن الإلهية من النوع المسمى بالسنن الإنسانية حاولت أن تستخلص خصائص عامة مشتركة لهذا النوع من السنن، أهم الخصائص التي قيل بها هي(٢٥):

١ ــ هذا النوع من السنن يظهر في حياة الجماعة لا الفرد.

---

(٢١) محمد إسماعيل إبراهيم، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٢٥٤.

(٢٢) د. شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، رسالة دكتوراه ــ مخطوطة، كلية أصول الدين ــ جامعة أم القرى، ص ٩.

(٢٣) عبد السلام نصر الله الشريف، سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين ــ الجامعة الإسلامية العالمية ــ إسلام آباد ــ باكستان، (مخطوطة)، ص ٢٥.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٢٨ ــ ٣٢.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٣٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢ ــ الثبات.
٣ ــ الشمول[٢٦].
٤ ــ العدل.

ثانيا: السنن الإلهية للهلاك (تدمير البيئة وفسادها)

تمهيد

أخبر القرآن الكريم عن نوع من السنن يسميه العلماء سنن العقاب. هذا النوع من السنن أخبرت عنه آيات كثيرة، يعتبر هذا النوع من السنن الإلهية من أكثر الأنواع وضوحا في القرآن الكريم. نعايش بعض الآيات التي أخبرت عن هذا النوع من السنن الإلهية وذلك لاستنتاج السنن التي تضمنتها.

نرى أن نضمن هذا التمهيد فكرة، المفسرون الذين فسروا الآيات التي سوف نستدل بها في موضوعنا كانت لهم مصطلحاتهم التي عبروا بها عن المعنى الوارد في الآية، التطور المعرفي في عصرنا وكذلك نوع الأحداث التي جدت فيه نراها مبررا لأن نستخدم مصطلحات جديدة للتعبير عن الموضوع القرآني. نعطى مثالا لبيان هذا الأمر: الآيات التي تكلمت عن الهلاك نرى فيها دلالة على أن إفساد البيئة يقود إلى الهلاك أو هو صورة من صور الهلاك.

١ ــ الذنوب سبب لزوال العمران:

يقول الله تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا من بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخرِينَ**)** (الأنعام: ٦).

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا من قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ من وَاقٍ**)** (غافر: ٢١).

تدل الآيتان المذكورتان على سنة إلهية هي أن الذنوب سبب لزوال العمران. وقد جاءت آيات أخرى في القرآن الكريم تدل على نفس المعنى.

نحاول أن نوجه المعنى الوارد في الآيتين توجيها يعمل على موضوع بحثنا. فساد البيئة نوع من زوال العمران، بل إنه يكون سببا في زوال العمران، أو مظهرا من مظاهر زوال العمران.

٢ ــ الظلم سبب لزوال العمران:

(٢٦) المراد بالشمول الحيادية، فهي تنطبق على المجتمعات مؤمنها وكافرها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول الله تعالى:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ...**)** (يونس: ١٣).

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**)** (هود: ١١٧).

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**)** (الكهف: ٥٩).

(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**)** (الحج: ٤٥).

تدل الآيات المذكورة على سنة من سنن الله تعالى هي أن الظلم، أيا كان شكله سبب لزوال العمران. بعبارة أخرى سبب للتدمير. يقول الزمخشري وهو يفسر آية سورة الكهف المذكورة: "القرى التي ذكرت إشارة إلى حضارات الأولين. ثمود وقوم لوط وغيرهم. والأقوام المذكورون كانت لهم حضاراتهم[٢٧]".

ليس هناك ما يمنع أن نوظف المعنى الوارد في الآيات التي تعرفنا عليها وكذلك التفسير الذي قاله الزمخشري في موضوع البيئة وإفسادها. إن إفساد البيئة الذي توقعه بعض الدول أو الأفراد في عصرنا على الأرض أو في الكون الذي نعيش فيه هو ظلم سوف يؤدى إلى الهلاك.

٣ ــ الترف سبب للظلم:

يقول الله تعالى:

(فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ**)** (هود: ١١٦).

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**)** (الإسراء: ١٦).

يقول الطبري في تفسير آية الإسراء: "الترفة: النعمة، والمترف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع[٢٨]". ويقول الرازي: "المترف: المنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش[٢٩]".

آية سورة الإسراء التي ذكرت وكذا آية سورة هود وآيات أخرى في القرآن تدل على أن سلوك المترفين بالمعنى الذي سبق تفسيره به سبب من أسباب الهلاك وأن هذا سنة من سنن الله.

المعنى الذي تحمله الآيتان المذكورتان وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم أوضح ما يكون في عصرنا. هذا التلوث الذي توقعه الدول الصناعية المترفة في

(٢٧) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، مرجع سابق ص ١٤٢.
(٢٨) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٤٠٥.
(٢٩) الرازي، تفسير الفخر الرازي، مرجع سابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البحر وفي الهواء وفي كل مناحي الحياة هو صورة لسلوك المترفين الذي أخبر به القرآن الكريم.

٤ ــ سنن إلهية أخرى:

النظر في القرآن الكريم يكشف عن آيات أخرى كثيرة أخبرت بسنن إلهية. يمكن أن نذكر سننا منها: الإعراض عن ذكر الله سبب للمعيشة الضنك، هذه سنة إلهية يدل على هذا قول الله تعالى: **(**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**)** (طه: ١٢٤).

سنة أخرى هي أن الغرور سبب للتدمير. يدل على هذا قول الله تعالى: **(**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)** (يونس: ٢٤).

المبحث الرابع
تلوث البيئة من صور الفساد المنهي عنه

تكلم القرآن الكريم في آيات كثيرة عن المفسدين والأنواع المتعددة والمتنوعة من الفساد الذي يقومون به. للمفسرين آراؤهم في تفسير الآيات التي أخبرت عن الفساد، وهم في تفسيرهم أحالوا إلى واقع كان في العصور التي كتبوا فيها وأعطوا أمثلة من هذا الواقع. نتلقى القرآن ونحاول أن نفهمه بالإحالة إلى أمثلة من الواقع الذي نعيش فيه ونطبق هذا المنهج في فهم آيات تكلمت عن الفساد وهو الموضوع الذي نناقشه في هذه الفقرة.

بعض الآيات التي تكلمت عن الفساد في الأرض

يقول الله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**)** (البقرة: ١١).

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ **)** (البقرة: ٢٥١).

(وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**)** (القصص: ٧٧).

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**)** (الروم: ٤١).

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**)** (محمد: ٢٢).

هذه بعض الآيات التي تكلمت عن الفساد في الأرض. بشأن هذا الموضوع وهو حديث القرآن الكريم عن الفساد في الأرض نشير إلى أمرين:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمر الأول: القرآن الكريم تحدث عن الفساد في الأرض في خمسين آية. نستنتج من ذلك أن القرآن الكريم نبهنا منذ قرون على خطورة الفساد في الأرض الذي يدخل في تلويثها أو يؤدى إلى تلويثها.

الأمر الثاني: سوف نقصر المناقشة على الآيات التي جاءت في سورة البقرة وهي الآيات ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦.

يقول الله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) (سورة البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦)

أولاً: في تفسير الآيات[٣٠]

يعجبك: الإعجاب سرور المعجب بما يستحسن، والعجب كل شيء غير مألوف.

ألد الخصام: الشديد الخصومة.

تولى: التولي هو الانحراف والزوال عن الشيء إلى خلاف جهته.

يفسد: الإفساد هو عمل الضرر بغير استحقاق ولا وجه من وجوه المصلحة.

يهلك: الإهلاك العمل الذي ينفي الانتفاع.

وإذا تولى: من المعاني التي فسر بها أن المراد بتولي صار واليا له حكم ينفذ وعمل يستفيد به، ويقوى هذا المعنى ما جاء في الآية وهو قول الله سبحانه (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ) "فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذر من مفسدة لأنه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلا الناس رأيا وأرجحهم عقلاً[٣١].

ثانياً: إشارة الآيات إلى أسباب لفساد البيئة:

ذكرنا معاني بعض الكلمات التي جاءت في الآيات التي نعايشها نقلاً عن المفسرين. تعلمنا أن القرآن الكريم حمال أوجه. لذلك نرى أن أحد المعاني التي تحملها هذه الآيات أنها أشارت إلى أحد أسباب تلوث البيئة الذي هو نوع من الفساد. نرتبط بالمعنى الذي فسر ما جاء في الآيات بأن المراد بقول الله سبحانه (تولى) أي صار واليا له حكم ينفذ وعمل يستبد به، نستطيع أن نحيل إلى الواقع الذي يوجد في عصرنا من حيث فساد البيئة، كل إنسان وضعت في يده سلطة من

(٣٠) الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم ، جـ ٢ ، مرجع سابق، ص ٥٣٣ .
(٣١) محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ، جـ ٢ ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ص ٢٥٠ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أي نوع وعلى أي مستوى يصدق عليه ما جاء في الآيات إذا أفسد البيئة التي يعمل فيها. المسئول عن المصنع الذي يلقى مخلفاته في النهر فيلوثه هذا نوع من السعي في الأرض بالفساد، المسئول عن السفينة الذي يلقى مخلفاتها في البحر فتلوثه هذا نوع من السعي في الأرض بالفساد، الدول الصناعية المتقدمة التي تلوث الماء والهواء وكل شيء يصدق عليها ما جاء في الآيات لأن هذه الدول أصبح لها عمل تستبد به.

نرى الإشارة إلى أمر له خطورته يتعلق بالفساد في الأرض الذي يقوم به من أصبح له عمل يستبد به. اتفاقية كيوتو إحدى الاتفاقيات التي نظمتها الأمم المتحدة للعمل على حماية الأرض من التلوث. الولايات المتحدة الأمريكية وهي أكبر دولة صناعية في العالم انسحبت من هذه الاتفاقية ويصدق عليها صدقا كاملا بينا ما جاء في الآيات وهو قول الله عز وجل: **(**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**)**

التوجيه الذي نوجه به الآيات التي نعايشها وهو أن أحد معانيها يشير إلى تلوث البيئة يقويه ما جاء في الآيات من قول الله تعالى **(**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ**)** إفساد البيئة بتلويثها ماء وهواء وتربة وغير ذلك يؤدى إلى هلاك الحرث والنسل. الحرث والنسل معنى جامع، إنه يستوعب كل ما تنتجه الأرض وكل ما ينتجه الإنسان وهو التكاثر البشرى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الخامس
في فقه حماية البيئة

تمهـــــيد

نخصص هذا المبحث الخامس لتقديم عناصر في فقه حماية البيئة أو التوازن البيئي. لأجل أن نفهم موضوع هذا المبحث فإننا نضعه في سياق موضوعات البحث السابقة والتي جاءت على النحو التالي:

موضوع المبحث الأول هو التوازن الكوني، وجاء المبحث الثاني بموضوعه عن التسخير، أي تسخير الكون المتوازن لنفع الإنسان. على هذا النحو يتكامل موضوعا المبحثين الأول والثاني.

المبحث الثالث عن السنن الإلهية في الكون، وجاء المبحث الرابع ليعرف بموضوع الفساد في الأرض باعتبار أن ما يترتب عليه سنة من السنن الكونية. على هذا النحو يتكامل المبحثان الثالث والرابع.

يجئ هذا المبحث الخامس عن فقه حماية البيئة أو التوازن البيئي، وهو بهذا يمثل تطورا طبيعيا للتتابع المتدرج للموضوعات، فمن التوازن الكوني العام إلى التسخير إلى السنن الإلهية في الكون إلى التوازن البيئي باعتباره وحدة أصغر في التوازن الكوني العام.

فقه حماية البيئة أو التوازن البيئي متعدد العناصر ومتشعب الموضوعات، نختار عناصر في هذا الفقه بحيث تعطى ما يمكن أن يكون صورة عن هذا الفقه.

أولا: أحاديث نبوية مؤسسة لعناصر في فقه حماية البيئة:

حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ حَدَّثَنَا أَبِى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ ».

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سُوَيْدٍ الرَّمْلِيُّ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَبُو حَفْصٍ وَحَدِيثُهُ أَتَمُّ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْحَكَمِ حَدَّثَهُمْ قَالَ أَخْبَرَنَا نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ حَدَّثَنِى حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْحِمْيَرِيَّ حَدَّثَهُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَ الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ ».

وَحَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَمُحَمَّدُ بْنُ رُمْحٍ قَالاَ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْد اللَّه الْحَافظُ وَأَبُو بَكْر : أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَن وَأَبُو مُحَمَّد بْنُ أَبى حَامد الْمُقْرِئ وَأَبُو صَادقَ بْنُ أَبى الْفوَارس قَالُوا حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاس : مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ أَخْبَرَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّد الدُّورِىُّ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّد بْن عُثْمَانَ بْن رَبِيعَةَ بْن أَبى عَبْد الرَّحْمَن الرَّأْى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيز بْنُ مُحَمَّد الدَّرَاوَرْدِىُّ عَنْ عَمْرو بْن يَحْيَى الْمَازِنِىِّ عَنْ أَبِيه عَنْ أَبى سَعِيد الْخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّه -صلى الله عليه وسلم- قَالَ :« لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ مَنْ ضَارَّ ضَرَّهُ اللَّهُ وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْه ». تفرَّدَ به عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّد عَنِ الدَّرَاوَرْدِىِّ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه حَدَّثَنى أَبى حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ أَنْبَأَنَا إِسْمَاعِيلُ أَخْبَرَنِى الْعَلاَءُ عَنْ أَبِيه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « اتَّقُوا اللاَّعِنَيْنِ ». قَالُوا وَمَا اللاَّعِنَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ « الذي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ ».

هذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بحماية البيئة، ونقدم تحليلا عنها:

١ ــ الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت هي مجرد أمثلة، ولا شك أنه توجد أحاديث نبوية كثيرة غيرها.

٢ ــ الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت وجهت المسلمين إلى عناصر أو تصرفات حامية للبيئة، ومن ذلك ما يتعلق بالغرس. والذين يهتمون بالبيئة في الوقت الحاضر يعرفون أهمية ذلك.

٣ ــ الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت نبهت المسلمين إلى عناصر أو تصرفات ضارة بالبيئة، إنها عناصر ملوثة للبيئة. من ذلك إفساد المياه وإفساد الطريق.

٤ ــ الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت أعطت أمثلة لحماية البيئة بما يتلاءم مع الواقع الذي كان قائما آنذاك. هذه الأحاديث تؤسس لوضع سياسات بيئية متطورة بحيث تستوعب المستجدات.

٥ ــ عندما نستدل بأحاديث نبوية فإنه يوجد ما يمكن أن يعتبر قضية. بعض الناس ترى أن ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم يشير إلى واقع بسيط ولذلك جاءت اقتراحات تعمل على هذا الواقع البسيط. للرد على هذه الملاحظة دائماً أقول إنه لا يدخل في نطاق المعقولية أن نتوقع أن يتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ثقب الأوزون مثلا بعبارات صريحة وإنما خاطب معاصريه بما يمكن أن يفهموه بالإحالة إلى واقعهم. هذا عنصر في الرد على هذا الاعتراض. عنصر آخر هو أن ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم صالح لأن يؤسس لسياسات قادرة على أن تتعامل مع واقع معقد مثل الواقع الذي نعيش فيه الآن وهذا أحد صور الإعجاز في الهدى النبوي.

٦ ــ نقترح سياسات بيئية لواقع معقد مؤسسة على الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرت. من هذه السياسات:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ سياسة التشجير، تعمل هذه السياسة على مقاومة التصحر، وتنقية الهواء وجعله متوازنا من حيث مكوناته: أوكسجين وثاني أكسيد كربون..

ـ سياسات لحماية مجارى الأنهار. عالمنا اليوم يشكو مر الشكوى من تلوث الأنهار.

ـ سياسات لتنظيم الصرف الصحي، أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم صريحة في هذا الأمر مبينة خطورته.

ـ سياسات لحماية الطرق العامة ونظافتها.

٧ ـ القواعد الكلية التي تضمنتها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هي أساس لوضع سياسات بيئية تتعامل مع واقع معقد. ذكرنا حديثا واحدا منها وهو: لا ضرر ولا ضرار. هذا الحديث نستطيع أن نوظفه لوضع سياسات بيئية متعددة، نستطيع أن نوظفه لوضع سياسات لحماية طبقة الأوزون وما قبلها وما بعدها. نستطيع أن نوظفه لوضع سياسات للصرف الصناعي.

ثانيا: فقه إحياء الأرض الموات وحماية البيئة

فقه إحياء الأرض الموات من الموضوعات الفقهية التي نقترح توظيفها في موضوع حماية البيئة والتوازن البيئي والمحافظة على النظام البيئي وغير ذلك من المصطلحات الداخلة في هذا النوع من الدراسة. نلخص العناصر التي نراها ملائمة لدراستنا في الآتي:

١ ـ الأرض الموات كل ما لم يكن عامرا ولا حريما لعامر. أما الإحياء فإنه معتبر بالعرف فيما يراد له الإحياء[٣٢]، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق ذكره إحالة إلى العرف المعهود فيه، جاء ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: من أحيا أرضا مواتا فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث.

٢ ـ الفقرة الأخيرة في حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي: وليس لمحتجر حق بعد ثلاث تضع شرطا هاما. بمقتضى هذا الشرط فإنه لو احتجر شخص أرضا لمدة ثلاث سنوات ولم يحيها ترفع يده عنها.

٣ ـ الإحياء ينتج حق الملكية للشخص الذي أحيا الأرض ونقول عن ذلك إن هذه أكبر مكافأة لمن يعمل بحيث يكون نتيجة عمله إحياء الأرض الموات. بعبارة معاصرة: تعمير الصحراء.

٤ ـ لو طبقت وظيفة الإحياء بشروطها الفقهية في عالمنا الإسلامي فإنها تمثل أهم سياسة وأهم حافز لتعمير الأراضي الصحراوية.

(٣٢) الماوردي، كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٢٠٠ ، ٢٠١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥ ــ تعمير الصحراء محور هام في الحديث عن حماية البيئة والتوازن البيئي والنظام البيئي. كل الدارسات التي تهتم بالنظام البيئي تجعل تعمير الصحراء مدخلا لذلك. كل السياسات التي توضع للمحافظة على التوازن البيئي تجعل تعمير الصحراء على رأس قائمة هذه السياسات.

٦ ــ الفقه الإسلامي بفقهه عن إحياء الأرض الموات يملك صلاحية حقيقية وفاعلة لدفع المسلمين للمحافظة في بلادهم على حماية البيئة والتوازن البيئي والنظام البيئي، وذلك لأن المسلمين يتلقونه باعتباره حكم الله في هذه المسألة. وهذه أكبر وأرفع درجة إلزام يلتزم بها الإنسان.

٧ ــ الفقه الإسلامي بفقهه عن إحياء الأرض الموات يملك صلاحية حقيقية وفاعلة لحث المسلمين على المحافظة على البيئة وتوازنها وحمايتها لأنه يتضمن العدل. بموجب هذا الفقه فإن الشخص الذي يقوم بالإحياء ويتحمل مسؤوليته تكون مكافأته أنه يمتلك ما أحياه وبموجب هذا الفقه فإن الشخص الذي يحتجر ولا يحيى فإنه تنزع يده عن الأرض التي احتجرها.

ثالثا: القواعد الفقهية وحماية البيئة

القواعد الفقهية أسسها علماء أصول الفقه على ما جاءت به الشريعة، وجاء الاهتمام بهذه القواعد في الكتب التي حملت عنوان الأشباه والنظائر. نحاول التعريف ببعض هذه القواعد، ثم نقوم بتوظيفها في موضوع حماية البيئة.

القاعدة الأولى: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

القاعدة الثانية: يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

القاعدة الثالثة: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

هذه بعض القواعد الفقهية التي نحاول أن نوظفها في موضوع حماية البيئة.

١ ــ قضية البيئة تقع في قلب المعركة الدائرة بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، إنها تقع في قلب المعركة الدائرة بين أنا والآخرين. المصلحة الخاصة يمكن أن تكون مصلحة شخص أو مصلحة شركة أو مصلحة دولة. المصلحة العامة يمكن أن تكون مصلحة مجتمع أو مصلحة العالم أو مصلحة الإنسانية ككل. نفس الأمر ينطبق على أنا والآخرين.

٢ ــ يحدث تلوث البيئة أو الإضرار بها أو الإخلال بتوازنها عندما تغلب المصلحة الخاصة أو الأنا بتصنيفاتها التي أشرنا إليها - تغلب على المصلحة العامة أو مصلحة الآخرين بتصنيفاتها التي أشرنا إليها.

٣ ــ القواعد الفقهية التي ذكرناها وقواعد فقهية أخرى كثيرة تحسم قضية الصراع بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، أو معركة أنا والآخرين. القواعد الفقهية التي ذكرناها توجب اعتبار المصلحة العامة على حساب المصلحة الخاصة، إنها تأخذ في الاعتبار الآخرين وأنا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤ ــ تطبيق القواعد الفقهية أو الالتزام بها يعتبر أساسا لسياسات تحافظ على البيئة أو تحافظ على التوازن البيئي، سياسات تمنع تلوث البيئة. هذه السياسات لها كفاءتها لأنها تتمتع بدرجة كبيرة من المرونة.

٥ ــ هذا المدخل للتعامل مع قضايا البيئة له أهميته بل نعطى له ترجيحا. إن التنادي لحماية البيئة باسم الدين يحمل في ثناياه الحث على الالتزام به، إن أرقى خطاب عندما يكون باسم الدين.

رابعا: وظيفة الحسبة وحماية البيئة

تعتبر وظيفة الحسبة من أهم الوظائف التي طبقت في الحضارة الإسلامية. نحاول التعريف بهذه الوظيفة مع بيان وجهها الذي يربطها بموضوع حماية البيئة.

١ ــ الحسبة أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وهي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم، وللمحتسب اجتهاد رأيه فيما تعلق بالحرف(٣٣).

٢ ــ من اختصاصات المحتسب، أو من الوظائف التي قام بها المحتسب في الحضارة الإسلامية ما يلي(٣٤).

أ ــ منع غش المبيعات وتدليس الأثمان ومراقبة المكاييل والموازين.

ب ــ يراعى أهل الصنائع في الأسواق من حيث:

ــ الغرر والتقصير.

ــ الأمانة والخيانة.

ــ الجودة والتقصير.

ج ــ يراقب المحتسب الحقوق المشتركة بين الناس مثل المنع من الإشراف على منازل الناس، ومنع السفن من أن تحمل ما لا تسعه.

٣ ــ أيضا من اختصاصات المحتسب أو من الوظائف التي قام بها.

أ ــ مراجعة الأفران والمداخن.

ب ــ مراقبة القصابين (محلات الجزارة) بمنعهم من تلويث الطريق.

ج ــ مراقبة الطباخين (أصحاب المطاعم مثلا) في أوانيهم ومداخن محلاتهم.

٤ ــ ما سبق يمثل أمثلة لوظائف أو اختصاصات قام بها المحتسب لحماية البيئة. وعلى غرار ما قلناه سابقا في هذا البحث فإنه إذا كانت هذه الوظائف تتلاءم مع واقع بسيط إلا أن الأساس الشرعي الذي انطلقت منه يمكن به ممارسة اختصاصات أو وظائف تتلاءم مع واقع معقد وذلك لحماية البيئة.

(٣٣) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١.
(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٥٨ ــ ٢٨٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأساس الشرعي الذي أصل للوظائف أو الاختصاصات التي قام بها المحتسب قديما صالحة لتأسيس وظائف أو اختصاصات لمواجهة مشكلة تلوث البيئة الذي تعانى منه المجتمعات الحديثة ذات الواقع المعقد، إنها صالحة لأن تتأسس عليها سياسات لمكافحة تلوث الهواء وتلوث البحار وتلوث التربة، بل صالحة لوضع سياسات لمواجهة مشكلة ثقب الأوزون.

٥ ــ من أقوى وأهم ما نختم به مناقشتنا لوظيفة الحسبة ودورها في حماية البيئة، وهو كذلك من أقوى وأهم ما نختم به بحثنا عن عناصر في فقه حماية البيئة ما يلي:

لقد وجدت في الحضارة الإسلامية وظيفة وزارية أو وظيفة لها اختصاصات وزارية تقوم على حماية البيئة ومنع تلوثها، هذه الوظيفة الوزارية هي وظيفة الحسبة والقائم بها هو المحتسب. يزيد من أهمية هذه الوظيفة الوزارية أن لها اختصاصات قضائية. يعنى ذلك أنها وظيفة تنفيذية قضائية. ولقد أخذت هذه الوظيفة هذا التكييف التنفيذي القضائي وذلك لأهمية متعلقها وهو حماية البيئة والنظام البيئي والتوازن البيئي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النتائج والتوصيات

أولاً: النتيجة الأولى لهذا البحث هي كشفه عما يمكن القول عنه إنه المنهج الصحيح للتعريف بموضوع البيئة في الإسلام وحمايتها وتوازنها ونظامها. كشف البحث عن هذا الموضوع أن الإسلام عالجه على ثلاثة مستويات:

كشف البحث أن القرآن الكريم أعطى الرؤية الكلية في موضوع البحث. ثم جاءت السنة النبوية المطهرة فكانت بمثابة المذكرة التفسيرية للقانون الكلي الذي أعطاه القرآن الكريم. بعد ذلك جاءت أقوال الفقهاء مبينة ما يمكن أن نسميه الإجراءات أو السياسات التي تضع موضع التطبيق القانون القرآني العام بمذكرته التفسيرية من السنة النبوية في علاقة الإنسان بالكون.

نحاول أن نضيف إلى هذا الأمر: القرآن الكريم بيَّن الرؤية الكلية التي تحدد علاقة الإنسان بالكون. ثم جاءت السنة النبوية المطهرة فتناولت تحديد علاقة الإنسان بالبيئة التي تحيط به. جاء تالياً لذلك أقوال الفقهاء مبينة كيفية وضع ذلك في التطبيق العملي.

التوصية الأولى:

البحوث الخاصة بموضوعات البيئة (وبغيرها) يجب أن تتجه أولاً إلى القرآن الكريم للتعرف على المنهج الكلي الذي يحكم الكون بما فيه كوكبنا الأرضي والغلاف الجوي المحيط به. ثم بعد ذلك تتعامل هذه البحوث مع السنة النبوية الشريفة على أنها مفسرة للبعد البيئي المتضمن في التوازن الكوني العام. ثم يجئ تالياً لذلك التعامل مع أقوال الفقهاء باعتبارها تبين الإجراءات والسياسات التطبيقية لحماية البيئة.

هذه التوصية بعناصرها الثلاثة تعالج اتجاهاً ظهر في بعض الدراسات عن الإسلام والبيئة والتي تبدأ بالتعريف ببعض الأحاديث النبوية الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والعاملة على حماية البيئة. هذا الاتجاه البحثي لم يستطع أن يقدم الرؤية الإسلامية الصحيحة للتوازن البيئي في إطار التوازن الكوني العام.

ثانياً: جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتكلم عن التوازن الكوني العام. الفهم الصحيح للتوازن الكوني العام يتطلب دراسة هذه الآيات في إطار السياق الذي جاءت فيه. يعني التوازن الكوني العام: كل شيء في الكون في موضعه في دقة وإحكام. وقد ربطت آيات القرآن الكريم بين التوازن الكوني العام والعناصر التالية:

١- التوازن الكوني مربوط إلى عناصر إيمانية منها أن الله بيده الملك وأنه خلق الإنسان.

٢- الرواسي التي تربط بها الأرض يدخل فيها المحافظة على التوازن البيئي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣- التوازن الكوني العام مؤسس على التمكين التام للإنسان بحيث يتحقق له الانتفاع التام مما خلقه الله عز وجل في الكون.

التوصية الثانية:

يجري التقليد في البحث العلمي المعاصر على أن التوازن الكوني يدخل في تخصصات معينة مثل علم الفلك أو علم الطبيعة. بناء على ما جاء بهذا البحث فإنه يوصي بأن يكون التوازن الكوني العام موضع اهتمام كل التخصصات العلمية بما فيها التخصص في العلوم الاجتماعية الإنسانية. هذه التوصية تعالج في دراسة هذا الموضوع، أي في دراستنا للتوازن الكوني العام.

التوصية الثالثة:

دراسة البيئة وتوازنها ونظامها يجب أن تتم في إطار التوازن الكوني العام. مع مراعاة أن هذا التوازن الكوني العام هو لتحقيق نفع الإنسان، ولذلك فإن الإخلال بالتوازن البيئي يخل بدوره بما ينفع الإنسان.

التوصية الرابعة:

دراسة البيئة بتوازنها ونظامها وحمايتها يجب أن تتم في إطار إيماني هو أن الله خالق هذا الكون وبيده أمره.

التوصية الخامسة:

بعض المفسرين الذين فسروا آيات التوازن الكوني العام أشاروا إلى موضوع العدل. لذلك يوصي البحث بأن ترتبط دراسات حماية البيئة ونظامها ومنع تلوثها بموضوع العدل الذي يعني أن كل شعوب الأرض لها حق الانتفاع المتساوي بالبيئة التي تعيش فيها وعليها.

ثالثاً: تبين في البحث أن القرآن الكريم يربط بين التوازن الكوني العام وتسخير ما في هذا الكون للإنسان. هذا الربط يحمل العناصر التالية:

١- التوازن الكوني لا يعطل قوى الإنسان في السعي والعمل واكتساب العلوم والمعارف لتسخير ما في هذا الكون لنفعه.

٢- يظهر القرآن الكريم العنصر الإيماني عند حديثه عن تسخير ما في هذا الكون المتوازن من أجرام هائلة. هذا الربط يؤكد أن دراسة البيئة وحمايتها وتوازنها يجب أن يتم في إطار الإيمان بالله خالق هذا الكون في توازن ومسخره للإنسان.

٣- آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن تسخير الكون الهائل المتوازن حملت قيماً تعليمية للإنسان منها الشكر والرأفة والرحمة.

التوصية السادسة:

دراسة البيئة وحمايتها وتوازنها يجب أن تتم على أساس أن الكون مسخر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للإنسان لأجل نفعه فإذا أخل الإنسان بالبيئة فإنه يخل بتسخير هذا الكون. يعني ذلك أنه سوف يستعصى عليه تسخيره.

التوصية السابعة:

تسخير البيئة يجب أن يتم في إطار قيمي منها الشكر والرأفة والرحمة. يعني ذلك أن توظيف الموارد الموجودة في هذا الكون يجب أن يكون مربوطاً بهذه القيم.

رابعاً: درس البحث السنن الإلهية التي بموجبها يتم تسيير هذا الكون وعمارته. وهذه السنن إما سنن كونية تسير وفقها الماديات أو سنن إنسانية تنظم الاجتماع، أي الاجتماع الإنساني. بموجب هذه السنن فإن هلاك البيئة وتدميرها وتلويثها مربوط إلى الذنوب التي يقترفها الإنسان، والظلم الذي يقع منه، وإفساد الموارد التي خلقها الله عز وجل، وكذلك مربوط إلى سلوك المترفين دولاً وأفراداً. والأمر الجامع للهلاك هو الإعراض عن ذكر الله.

التوصية الثامنة:

دراسات البيئة من حيث حمايتها ومنع تلويثها والمحافظة على توازنها والسياسات التي توضع لذلك يجب أن يأخذ في الاعتبار أنه توجد سنن إلهية للعمران وللهلاك. يعني ذلك أنه لن يمكن إنقاذ الأرض إلا بسنن الله في العمران. ويعني ذلك أيضاً أن هلاك الحياة على الأرض يكون حتمياً إذا فعل الإنسان ما يوجب سريان سنن العقاب.

التوصية التاسعة:

من سنن الله في الهلاك - فساد البيئة وغير ذلك - الترف. والمترف هو الذي أبطرته النعمة. لذلك يوصي البحث أن يراجع المترفون سلوكهم المدمر للبيئة، والمترفون المطلوب مراجعة سلوكهم هم دول وأفراد.

التوصية العاشرة:

ربط القرآن الكريم بين الفساد وسلوك فئة من الناس إذا تولت أمراً. والفساد يتضمن تلويث البيئة وتدميرها وغير ذلك. التوصية هي التنبيه بأن فساد البيئة وتلويثها والإخلال بتوازنها يكون بسبب سلوك بعض من يصبح في يدهم سلطة، أفراداً أو دولاً. لذلك فإن علاج البيئة يجب أن يسبقه علاج هؤلاء الذين يصبح في يدهم سلطة سواء كانوا أفراداً أو دولاً.

خامساً: الموضوع الخامس والأخير في هذا البحث عن فقه حماية البيئة. تبين مما جاء في البحث عن هذا الموضوع ما يلي:

١- فقه حماية البيئة وتوازنها والمحافظة على النظام البيئي متنوع ويشمل موضوعات كثيرة. وهذا الأمر يتيح العمل بسياسات بيئية متنوعة ومتعددة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢- القواعد الفقهية من عناصر الفقه البيئي. هذه القواعد لها كفاءة العمل على كل الخيارات في العمل البيئي الصحيح.

٣- تبين أن الفقه البيئي يسع سياسات بيئية لها كفاءة العمل في واقع بسيط أو واقع معقد.

٤- تبين أن وظيفة الحسبة كان لها تطبيقها الواسع في الحضارة الإسلامية، ومن اختصاصات هذه الوظيفة المحافظة على البيئة وحمايتها. ومن المعروف أن الحسبة وظيفة تنفيذية قضائية. وقد كشف البحث عن أن الحضارة الإسلامية بالحسبة وجدت فيها وزارة تدخل فيها شئون البيئة. وهذا سبق للإسلام ولحضارته. بل إن وزارة البيئة التي أوجدها الفقه من خلال وظيفة الحسبة أعمق من وزارات البيئة في الدول المعاصرة وذلك لأن لها اختصاصات قضائية. وهذا يتلاءم مع قضايا البيئة ومشكلاتها.

التوصية الحادية عشرة:

يوصي البحث بأن تتأسس سياسات البيئة في البلاد الإسلامية على الفقه الذي جاء به الإسلام، وهذا الفقه له صلاحية تطبيقية مستمرة.

التوصية الثانية عشرة:

يوصي البحث بتدريس فقه البيئة في جميع المؤسسات التعليمية الإسلامية، كما يوصي بإنشاء برامج عن فقه البيئة في جميع المؤسسات الإعلامية المسموعة والمرئية. وكذلك يوصي البحث بإنشاء وزارة لشئون البيئة في جميع البلاد الإسلامية إحياء للتقليد في الحضارة الإسلامية التي طبقت طوال تاريخها وظيفة الحسبة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كلمة فضيلة الشيخ جمال قطب/

شكرًا للأستاذ الدكتور رفعت العوضي على ما قدمه لنا في هذا اللقاء في موضوع الثقافة البيئية في الإسلام، وهو معلم من معالم شخصية الإسلام. بداية نلاحظ أن قضية البيئة في العصر الحديث بدا كأنه اكتشاف أو موضة جديدة هذا أمر غير صحيح، القرآن الكريم هو كتاب الله، ومطلق الإنسان خليفة الله، والكون كله ملك الله، وقد كلف عبد الله أن يراعي هذا الملك، فلو كانت الحضارة الغربية صادقة لأكدت دور الإسلام والنص القرآني في التأكيد على ضرورة حماية الأرض والماء والبحر والجو قبل الدعوات المعاصرة لذلك، فآيات القرآن التي استمعنا إليها وغيرها كثير كما سمعنا من محاضرنا، توصي الإنسان كيف يسكن هذه الدنيا، حتى أن القرآن الكريم وهو يقول **{**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}** (الروم: ٤١) قل لي حينما تليت هذه الآية من ألف وأربعمائة سنة هل كان يتصور من قرءوا الآية أو عاصروا نزولها أنه سيأتي يوم على أرقى الأمم تقدمًا، أن تضع نفاياتها الذرية في البحار وفي البلاد، بل تدفع أموال طائلة لتضع هذه النفايات عند شعوب فقيرة.

القرآن كله تكليف لخليفة الله للحفاظ على الكون الذي بلغة العصر "البيئة" التي نسكنها، وكلمة "بيئة" ليست مصطلح عسير، كل ما نحيا فيه ويحيط بنا هو بيئة، الرحم (رحم الأم للجنين) بيئة، سكنك، مقر عملك هو بيئة لك، المرافق العامة التي تحيط بنا بيئة، فحتى الكون كله، لذلك الآيات التي استمعنا إليها تحذر بظهور الفساد في الأرض **{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ**}** (البقرة: ١١) قد يأخذ الجانب الأخلاقي، فالإفساد في الأرض منعها من الإنهاك، والعبث بمقدراتها.

العالم الغربي المتقدم يأخذ بسياسة الأرض المحروقة حتى في محاربة دولة فقيرة كالعراق، رأينا ما لم يره الكون من قبل، منذ دعوة رسول الله **r**، فسيدنا رسول الله **r** يأمر الجيش ألا يسلك هذا المسلك فلا تقطعوا شجرة، ولا تذبحوا بهيمة، مكونات الكون ومقدراته وعناصر البيئة ينبغي الحفاظ عليها سلمًا وحربًا، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الْقِيَامَةُ وَفِى يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا »، هذه علامات أو إشارات من الوحي القرآني والبيان النبوي لرسول الله r .

أضاف أستاذنا الدكتور رفعت العوضي معلم هام جدًا كاد الناس أن ينسوه، فعندما نصدم في سلعة لعدم جودتها أو لعدم نضجها نقول لو أن هناك مفتش صحة، أو مفتش تموين فهذه الكلمات من مصطلحات العصر، ولكنها كما أشار هي وظيفة المحتسب الأولى، فأول من عين محتسب في الدنيا لاتخاذ القرار هو سيدنا رسول الله r . ورسول الله r أول من دخل السوق لرقابته وقصته مع بائع الحبوب مشهورة، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّلْتِ حَدَّثَنَا أَبُو عَقِيلٍ : يَحْيَى بْنُ الْمُتَوَكِّلِ قَالَ أَخْبَرَنِى الْقَاسِمُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ سَالِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مَرَّ بِطَعَامٍ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُ، فَأَدْخَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَدَهُ فِي جَوْفِهِ، فَأَخْرَجَ شَيْئاً لَيْسَ بِالظَّاهِرِ فَأَفَّفَ بِصَاحِبِ الطَّعَامِ ثُمَّ قَالَ :« لاَ غِشَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ». أخذ الفقهاء وأولي الأمر في حضارتنا من تلك القاعدة تشريعات لراحة العباد، وهناك صور عديدة أذكر منها صورتين اثنتين: لما وجدت مجتمعات مدنية مثل التي نعيش فيها، وأصبحت ربة البيت غير قادرة على إعداد الخبز وجدت الأفران، فالفقيه وأولي الأمر أوجدوا محتسب لهذه المهنة، فكان الفران والعجان من أربعمائة سنة، لا يمكن أن يبدأ عمله في الصباح قبل مرور المحتسب عليه للتأكد من أن فمه خالي من رائحة البصل، أظافره قصيرة ونظيفة، المكان من حوله نظيف وكذلك الماء، والحطب الذي سوف يستخدمه في إشعال النار جاف، غير محمل بقاذورات ولا روائح تضر البيئة، وكذلك لما وجدت فكرة صالونات الحلاقة لم يسمح في مصرنا هذه حتى آخر عمل بنظام الاحتساب عام ١٩٢٠م فكان محتسب الحلاقين يذهب في الصباح لصالونات الحلاقة للتأكد من أن أدوات الحلاقة موضوعة في إناء به محلول مطهر، ويشم فم الحلاق إذا كان مخالف يمنعه من العمل، هذه صور مكتوبة وليست من الذاكرة وشاهد على أمة تحملت رسالة ربما لأنها مؤتمنة على الحفاظ على التوازن البيئي وأداء هذه العبادة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قلت في بداية ترحيبي بأستاذنا الدكتور رفعت أن الحفاظ على البيئة والالتفات إليها قبل فرضها كثقافة، فريضة يقال عنها "فريضة كفائية" وفرض الكفاية إذا قام به أحد سقط عن الباقيين، هذا الكلام يصلح في صلاة مثل صلاة الجنازة فليس من الضروري حشد الناس كلها لصلاتها، لكن الأمر يختلف في مسألة الحفاظ على البيئة فلا يصلح مثلاً أن يقوم فرد في عمارة بالنظافة أمام بيته ويترك الآخرين المكان متسخ أمامهم، أو أن يلقي أحد السكان بقايا طعامه تأذى الآخرين مما يؤدي إلى أضرار صحية تستلزم إنفاق على الصحة مما يؤدي إلى تعطيل الإنتاج، وهذا ليس من أساليب الحفاظ على البيئة كمورد اقتصادي.

لازال الناس ينطلقون في البناء على الأراضي الزراعية دون أن يتقدموا ناحية الأراضي الصحراوية، حتى أصبح مليار ونصف مليار ينتظرون مراكب القمح من أمريكا، أليس هذا استهانة بالبيئة؟ أليس ذلك تضييع للإنسان؟ حينما ينتظر طعامه من آخر، وليس عدوه. أوسع أرض وأكثر الأنهار لا تنتج طعام بأيديها، فانحدرنا لتركنا البيئة ولتعكير صفوها من خير أمة أخرجت للناس إلى أقل ما قال فيه أبو الحسن الندوي، كما ذكرت "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين". انحطت الأمة وأصبحت تنتظر الطعام يأتيها من الخارج، وأصبحت تنتظر الخارج لاستقبال مرضانا لعلاجهم، وأصبحت تسعر لنا قيمة السلع مع أن المسخرات تحت أيدينا والنظر والأوامر للانطلاق والبحث والتمتع تكاليف إلهية، لا أريد أن أطيل عليكم، وأترك الحديث للتعقيبات، وشكرًا.

مداخلة الأستاذ الدكتور محمد السيد النتة - زراعة عين شمس/

بسم الله الرحمن الرحيم، بداية أشكر الأستاذ الدكتور رفعت العوضي على تلك المحاضرة القيمة وأدعو الله أن يستفيد منها الحاضرون.

إن النظرة الإسلامية للبيئة هي نظرة جيدة، وأنا أؤيد بشدة زيادة الوعي البيئي وزيادة المعارف مما نعانيه من آثار البيئة السيئة علينا وعلى المجتمع بأسره، ويجب أن ندخل للمواطن من أي مدخل، فإذا دخلنا إليه من مدخل إسلامي واقتنع به فهذا شيء جميل، وإذا دخلنا إليه من المدخل النفعي واقتنع به فهذا شيء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جميل، المهم أن نصل إلى هدفنا. وأنا سوف أذكر بعض الأرقام التي تؤيد كلام أستاذنا، هلاك الأرض كما قال فضيلة الشيخ في مصر استصلحنا ٣ مليون فدان خسرنا في المقابل أثناء فترة الاستصلاح ٢,٥ مليون فدان من أرض الوادي الزراعية الخصبة التي لا تحتاج إلى مجهود في زراعتها، نحن نخسر سنويًا العديد من الأراضي الزراعية حسب إحصاءات الدولة رغم وجود الأمر العسكري ٦٠ ألف فدان. إذا سرنا بهذا المعدل بعد أقل من مائة عام سوف نخسر كل أراضي الوادي والدلتا.

تعريف التلوث أن البيئة أو المادة التي تستعمل لا تؤدي وظيفتها، فالأرض لأي سبب لم تؤد وظيفتها أو المياه لا تؤدي وظيفتها أصبحت غير صالحة. الزراعة والإنتاج الزراعي يحتاج إلى شيئين أساسيين هما الموارد الأرضية والموارد المائية، فإذا كنا نسير بهذا الشكل حتى لو ذهبنا للصحراء، الزراعة تحتاج مياه، ويأتينا أكثر من ٩٠% من مواردنا المائية من نهر النيل أي ما يبلغ ٥٥,٥ مليار متر مكعب في السنة، ينبع نهر النيل من خارج أراضينا، وكذلك معظم الأنهار العربية، أحد المشاكل عندنا أنها تنبع من خارج أراضينا، والآن يوجد لدينا عجز مائي وننادي بالثقافة المائية يجب أن يكون لدينا وعي بقضية المياه ومشاكلها.

عام ٢٠٢٥ سيكون عندنا عجز مائي حوالي ١٦ مليار متر مكعب والمياه رغم ذلك تأتي إلينا نلوثها ولا تؤدي وظيفتها سواء في الري أو سواء في الشرب، وقبل الشرب نضيف لها ٩ أمثال تركيز الكلور المستخدم عالميًا حتى تصبح صالحة للشرب، مما يؤدي إلى الإصابة بالأمراض، ٨٠% من أمراض العالم الثالث سببها مياه الشرب، فشكرًا لحضراتكم الاهتمام بالبيئة.

مداخلة الأستاذ مصطفي الدسوقي- خبير اقتصادي/

بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أنا أحب أن أتحدث في عدة نقاط: النقطة الأولى: دور مركز الدراسات المعرفية، وهو دور من أخطر الأدوار في الفكر الإسلامي المعاصر لأنه يجمع بين القراءتين، قراءة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوحي وقراءة الوجود، وفي هذه الليلة إبداعات أستاذي الأستاذ الدكتور رفعت العوضي، وهو من الرعيل الذي يؤسس للاقتصاد الإسلامي، فله في مجاله تجليات وفي تهيئة كتب التراث الاقتصادي الإسلامي باع كبير، فضلاً عن أن له إسهامات متعددة في مجال منظومة آيات الربا في القرآن الكريم، ومنظومة آيات المواريث في القرآن الكريم، وفي هذه الليلة المباركة يلقي الضوء على منظومة الآيات والأحاديث والسنن والقواعد الفقهية في مجال البيئة، لا شك أن هذه الإسهامات جميعًا ستؤتي ثمارها في القريب العاجل على مستويات متعددة بالرغم مما تمر به الأمة: من هزيمة وتدهور، أضيف أن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يقول لنا بسم الله الرحمن الرحيم {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦) و{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام: ١٦٢) فكل حركة وكل نشاط وكل سلوك وكل سكنة من سكنات الإنسان عبادة، ويتفرغ عن العبادة عمارة الأرض لقوله تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} (هود: ٦١) وأيضًا بجانب العمارة وضح لنا القرآن في آيات أخرى منها: بسم الله الرحمن الرحيم: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص: ٧٧)، هذه الآية الجامعة التي تدعونا إلى منع الفساد، والفساد ضد العمارة. أنا أشكر أستاذي الجليل الدكتور رفعت العوضي على هذه المحاضرة القيمة لأنها تلقي الضوء على ثقافة حماية البيئة، وما قاله الليلة يمثل إبداع من إبداعات الدكتور العوضي في بحثه في مجال الاقتصاد الإسلامي، حيث أن الله سبحانه وتعالى يلهمه الكثير في هذا المجال، وأيضًا لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر إلى فضيلة العالم الجليل الشيخ جمال قطب على هذه الإضافة القيمة التي وضحت دور المحتسب في ظل الحضارة الإسلامية، وهذا الدور الذي انتهي بزوال دولة الخلافة الإسلامية "الدولة العثمانية" وأتوجه أيضًا بالشكر إلى مركز الدراسات المعرفية، والنخبة التي يتميز بها حيث أنها كما قلت في البداية تصنع مسيرة الفكر الإسلامي في القرون القادمة لأنها تجمع ما بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الوجود وشكرًا والسلام عليكم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مداخلة الأستاذ الدكتور سليمان عبد ربه - كلية التربية - جامعة عين شمس/

بسم الله الرحمن الرحيم، بداية الشكر موصول للسادة الدكتور رفعت، وفضيلة الشيخ جمال قطب، استنتج من المحاضرة بأن من أجل أن تكون هناك ثقافة بيئية لابد أن تكون هناك تربية، وليست قضية التربية أن تكون هناك مادة تدرس عن التربية البيئية، بل يجب أن تكون التربية البيئية عملية متكاملة سواء كانت في المدرسة أو في المنزل أو في التعليم غير النظامي (إذاعة وتلفزيون وغيرها)، فالكل يعين على أن تكون هناك ثقافة بيئية. وتكون المناهج الدراسية مدخل كلي وليست مادة، ولدينا مادة الدراسات الاجتماعية وهي أكثر ارتباطًا بمكونات البيئة، لكن لو تعالج من منظور إسلامي يكون ذلك أفضل، وكذلك المواد الأخرى لا مانع أن تكون هناك مداخل في كل مادة لها بعد قضية الثقافة البيئية، أيضًا لكي تكون ثقافة بيئية لابد أن يكون أيضًا هناك تشريع يخص ذلك، وشكرًا.

مداخلة المهندس خالد محمد - مهندس معماري/

بسم الله الرحمن الرحيم، لي سؤال كما قلت حضرتك عن فرض الكفاية ثم عدلت الأمر إلى فرض إلزامي، أعتقد أنه مهم، لأنه أصبح الإخلال بالتوازن البيئي أمر لا يمكن السكوت عليه. حضرتك ذكرت في بعض الآيات أنه ظلم، وأنه إفساد في الأرض، وأنه إهلاك للحرث والنسل، وبالتالي يترتب عليه ضرر بليغ، إذا كان فضيلة المفتي السابق أفتى أن شرب الدخان يعتبر من المحرمات للفرد، لأنه أضر فرد، فما بالك بمن يضر بالبيئة كلها، وأنا أرى أن حديثنا عن البيئة يجب يندرج تحت الحلال والحرام، وشكرًا.

رد على التعقيبات من الأستاذ الدكتور رفعت العوضي/

بسم الله الرحمن الرحيم، إن ما قدمته يعتبر عناصر أساسية لهدف البحث، أنا في هذا البحث لم أهتم أن أعرض مظاهر فساد البيئة أو درجة الفساد الموجودة في الهواء أو درجة الفساد الموجودة في الطعام الذي نأكله، وأيضًا لم أتكلم عن الأدبيات الحديثة عن موضوع حماية البيئة، شاغلي الرئيسي إن استطعت أن أدخل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في موضوع البيئة أن أدخل من مدخل إسلامي بجانب المداخل الأخرى هذا كان اهتمامي الرئيسي وقدمت ورقة على هذا الأساس، لعلها وصلت الرسالة.

في تعليق فضيلة الشيخ جمال قطب أن قضية البيئة من ألف وأربعمائة عام، الإسلام اعتبرها قضية حيوية، وسيدنا رسول الله r اعتبرها قضية حيوية، فضيلة الشيخ جمال قطب تحدث عن أخلاقيات المسلمين في الحروب، وأنا أذكر الضد فأمريكا في غزوها للعراق ضربت جميع محطات المياه الصالحة للشرب، والمستشفيات، واستخدمت نوع من الغازات يقتل كل قدرة إنتاجية في العراق.

بالنسبة للمحتسب فقد سمح الإسلام أن يعطي للمحتسب تخصصات تنفيذية وقضائية، وقالوا عن المحتسب أنه وظيفة ما بين الوالي والقاضي، وكان يتبع الوالي مباشرة، وطوال تاريخ الحضارة الإسلامية لم تكن هناك وظيفة ليس لها محتسب.

بخصوص موضوع تشريع الأحياء، وهو أحياء الأرض الموات، وأنا ذكرت من اثنين وعشرين عامًا لو ضعت وظيفة إحياء الأرض كما شرعها الإسلام في العالم الإسلامي الآن ما وجدت صحراء، فمن أحيا الأرض في الإسلام يمتلكها.

فيما يتعلق بما قاله أ.د. محمد السيد بأنه أشار إلى المدخل البيئي في الإسلام وأعطى أمثلة وأشار إلى الثقافة المائية. وأشير إلى توجيهات سيدنا محمد r بعدم الإسراف في استخدام الماء في الوضوء حتى ولو كان الإنسان يتوضأ من البحر، يقصد بتلك التربية أنه لا يستخدم المياه بسفه. وانظروا لنظام الوقف في الإسلام وما هي اختصاصاته في حماية البيئة ونظافة البيئة وتوفير المياه الصالحة.

بالنسبة لما قاله أ. مصطفي دسوقي هو تأكيد لفكرة الإعمار نفسها، الإعمار في الإسلام لو وضع تشريع الإعمار أو العمران كما جاء في القرآن الكريم وأحاديث رسول الله r وفي الفقه الإسلامي، هذا كافي لعلاج كثير من مشاكلنا البيئية.

الأستاذ الدكتور سليمان عبد ربه فيما يتعلق بموضوع المقررات، ليس من رأيي عمل مقرر واحد، بل مقرر ثقافة بيئية إسلامية في جميع المراحل التعليمية، لأن الدولة تخسر خسائر كبيرة من تلوث البيئة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنسبة للمهندس خالد أخبروا الناس أن تلوث البيئية حرام وليس مخالفة قانونية سوف يتغير الحال.

هناك سؤال عن تحديد المسئولية الكل مشترك فيها المواطن والدولة، فالدولة يجب أن تضع التشريعات اللازمة لحماية البيئة، تضع وزير شئون بيئة باختصاصات المحتسب الذي عنده عدة اختصاصات قضائية.

لقد سعدت كثيرًا لأن ألتقي بكم الليلة وسعيد بلقاء فضيلة الشيخ جمال قطب وشكرًا.

كلمة ختامية لفضيلة الشيخ جمال قطب/

أولاً باسم مركز الدراسات المعرفة وباسمكم جميعًا نتفضل بوافر الشكر لأستاذنا الدكتور رفعت العوضي، أستاذ الاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر على ما تفضل به وذكرنا بفضيلة شرعية قديمة قدم الوحي، أريد أن أختصرها اختصار الواعظ في كلمة مما لا يحق للواحد فينا إذا كان ضيف في بيت صديق له أن يتلفه أو أن يحطم أثاثه، أو أن ينقص قيمته، لا يحق لعبد يسكن هذا الكون أن يتلف البيئة بأي مصدر أو بأي حجة ولا لأي سبب وإذا وجد من يفسد فيها فإذا لم يكن هناك إمكان من إيقافه فلا أقل من أن تتصرف عنه ولا تقتدي به ولا تعامله بالمثل.

أريد أن أذكر بكلمة من التاريخ الذي يريد البعض أن يهيل عليه التراب حتى اللمحة الجمالية رأي فقهائنا رضي الله عنهم أنها ضرورة ولكن يجب أن تكون لها أثر، وجد المهندس المعماري في مصر قضية القباب التي في الجوامع ويقال عنها القبة، من العصر المسيحي في الكنيسة يوضع أعلى القبة صليب، في حكم الدولة العثمانية قالوا نضع عليها الهلال فالمهندس يعرف أن الله بعث محمد r لإعمار الكون، وأن كل قطعة حديد وكل قطعة صاج إذا لم تعد على الإنسان أو الموارد والمسخرات بفائدة تصبح عبث، فالمهندس الذي بني مسجد الإمام الشافعي، أمام إصرار الناس لوضع هلال، فجاء بالصانع وقال له تصنع الهلال مزدوج على شكل نموذج مركب، وتقسمه قسمين وموجود حتى يومنا هذا في مسجد الإمام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشافعي ووضع للقبة عشر درجات حديد، ورتب من موظف يومي يصعد ويملئ القارب الذي على شكل هلال نصفه ماء ونصفه قمح حفاظًا على الطيور التي تذهب للمكان (العصافير)، انظروا كيف كان المسلم يبحث عن إغناء وإسعاف طائر غير اقتصادي، وعدم العبث بموارد اقتصادية للزينة فحسب. هذه إشارات بيئية أوصلنا إليها واستحضرها إلى ذهننا أستاذنا الدكتور رفعت العوضي فشكر الله له وشكر الله لكم جميعًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ **إبراهيم (محمد إسماعيل إبراهيم)** معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢ ــ **الخطيب (شريف الخطيب (دكتور))** السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، رسالة دكتوراه ــ مخطوطة، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى.

٣ ــ **الرازي**، تفسير الفخر الرازي،، دار الفكر، ط ٣، ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥م.

٤ ــ **رضا (محمد رشيد رضا)** تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٥ ــ **الزمخشري**، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت.

٦ ــ **الشريف (عبد السلام نصر الله الشريف)** سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، مخطوطة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

٧ ــ **الشوكاني**، فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية، من علم التفسير، دار الفكر.

٨ ــ **الطبرسي**، مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦م.

٩ ــ **الطبري**، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

١٠ ــ **ابن عاشور**، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١١ ــ **قطب (سيد قطب)** في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦.

١٢ ــ **الماوردي (أبو الحسن الماوردي)**، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com